الفصل السابع

انتشار الإسلام فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى والأوسط

كانت الصحراء الكبرى فى عصر الجليد تقع فى منطقة الرياح العكسية ، وكان يصيبها من المطر ما يكفى لإنشاء أنهار دائمة الجريان . فلما تقهقر الجليد إلى الشمال تقهقرت تبعاً له الرياح العكسية وحل محلها فى الصحراء الكبرى الرياح التجارية الشمالية الشرقية وهى هنا رياح جافة . ومن ثم عم الجفاف الصحراء حتى لقد تمضى الأعوام على بعض أجزائها دون أن يحظى بقطرة من المطر . فلا عجب أن تبقى الصحراء الكبرى مرهوبة الجانب دهراً طويلا يتخيلها الإنسان مساكن للجن والشياطين ، ولا يخاطر عاقل بالتوغل فيها حتى بعد أن دخلت الخيل مصر ثم بلاد المغرب فى عصر الهكسوس (١٧٨٥ — ١٥٨٠ ق . م) . ولا ريب فى أن أول ما ينفر الناس من الصحراء خوفهم من الموت عطشاً .

ومن الطريف فى هذا الباب ما يقصه الطبرى عن سليمان عليه السلام حيث يقول : « كان سليمان بن داود إذا أراد سفراً قعد على سريره ووضعت الكراسى يميناً وشمالا . فيأذن للانس ، ثم يأذن للجن ، فيكونون خلف الإنس ، ثم يأذن للشياطين فيكونون خلف الجن ، ثم يرسل إلى الطير

فتظلهم من فوقهم — ثم يرسل إلى الريح فتحملهم فتسير بهم ، غدوها شهر ورواحها شهر رخاء حيث أصاب . فبينما يسير إذ نزل مفازة فسأل عن بعد الماء ههنا فقال الإنس لا ندرى ، فسأل الجن فقالوا لا ندرى ، فسأل الشياطين فقالوا لا ندرى . فغضب سليمان فقال : لا أبرح حتى أعلم كم بعد مسافة الماء ههنا » .

فإذا كان هذا النبي الملك المتحكم فى الإنس والجن والشياطين والطير والرياح لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى الصحراء حتى يعلم قبل أن يتحرك للسير المسافة التى عليه أن يقطعها قبل أن يبلغ مورد ماء جديد فكيف بسائر الناس؟

وقصة سليمان هذه تمثل الحقيقة الواقعة وهى ضرورة وجود الماء الصالح لشرب الإنسان والحيوان . ولما كانت موارد الماء فى الصحراء قليلة ومتباعدة لم يكن فى الطاقة المخاطرة باجتيازها مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل . فلما نقل الرومان الإبل من مراعى غرب آسيا إلى بلاد المغرب فى أوائل العصر المسيحى أصبح فى حدود المعقول استخدام سفينة الصحراء لارتياد أطرافها عساها تبلغ ماء قبل أن يهلكها الظمأ .

وخاطر أناس باقتحام الصحراء كما خاطر كولمبو باقتحام المحيط ، وكانت النتيجة فى الحالين خيراً و بركة على بنى الإنسان : ذلك بأن الذين اقتحموا الصحراء لأول مرة صادفوا ماء أخذوا منه قدر ما يطيقون ، و بلغهم هذا الماء ماء ثانياً ، و بلغهم الماء الثانى ماء ثالثاً . وهكذا حتى تم لهم اجتياز الصحراء بعد تجارب شاقة — لعلها امتدت بهم مئات السنين .

و بالكشف عن موارد الماء فى الصحراء شمخت الإبل بأنوفها حين

أحست حاجة الناس إليها باعتبار كونها — دون سواها — القادرة على اطلاعهم على أسرار الصحراء وما تكنه من واحات خصيبة ومرتفعات تجودها أمطار فى بعض فصول العام فتنبت من كل زوج بهيج . هذا إلى ما هنالك من مناجم للملح كان الناس فى أمس الحاجة إليها ؛ ثم إماطة اللثام عما وراء الصحراء الكبرى من بلاد السودان الأوسط والغربى حيث المراعى النضرة والأرض الصالحة للزراعة والهجرة .

ولم يبالغ المؤرخ الفرنسى إذ عد الكشف عن أول واحة فى الصحراء الكبرى انقلاباً لا يقل عما أحدثه ابتكار السكك الحديدية والسيارات والطائرات .

وإليك — على سبيل المثال — بعض طرق القوافل التي تخترق الصحراء وتربط مصر وبقية شمال أفريقية بالسودان .

١ — من أسيوط إلى الفاشر عاصمة دارفور .

٢ — من بنى غازى — ثغر برقة — عن طريق أوجلة وواحة كفرة إلى أبشر عاصمة وادى ومن ثم إلى الفاشر .

٣ — من مدينة طرابلس الغرب عن طريق مرزوق — عاصمة فزان — إلى كوكا العاصمة التجارية لإقليم برنو ، ومن ثم إلى كانو مستودع السودان الأوسط ومقر صناعته وتجارته .

٤ — من طرابلس الغرب عن طريق غدامس إلى عين صالح فى واح توات .

٥ — من مدينة الجزائر عن طريق عين صالح والمبروك إلى تمبكتو .

٦ — من أغادير عن طريق تندوف وتودنى وهى المركز الرئيسى لمناجم الملح فى الصحراء إلى تمبكتو .

٧ — من تافلالت عن طريق تودنى وأروان إلى تمبكتو .

وما أن فتح العرب شمال أفريقية حتى اتخذت بعض قبائل البربر من هذه الطرق وسيلة للهجرة إلى السودان تستوطنه وتنشر الإسلام فيه . وأول من أسلم من أهل السودان مملكة السنغاى وذلك فى فجر القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى إذ اعتنق ملكها وزعماؤها الإسلام ، وتقرر أن يكون اعتلاء العرش مقصوراً على المسلمين . ومن ذلك الحين صار ملك السنغاى وزعماؤها مدافعين عن الدين الحنيف حريصين على نشره .

ومن القبائل البربرية التى هاجرت إلى السودان أناس خالطوا السودانيين الزراع وصاهروهم ، ونشأ عن هذه المصاهرات جيل قوى عظم نفوذه فى السودان واشتهر منه جماعة سموا أنفسهم فُلبى وأطلق عليهم جيرانهم نحو مائة اسم أكثرها ذيوعاً فلا وفُلانى .

وقبائل فلبى بعيدة الصوت فى السودان الأوسط ، يقيمون جماعات متفرقة فى حوض نهر النيجر الأعلى ، وينعمون بحياة رعوية فى سلم واطمئنان . ويرى بعض الباحثين أنهم أذكى القبائل الافريقية . ومما زاد فى نفوذهم ظهور عالم ورع من بينهم يسمى الشيخ « عثمان دنفديو » أعجب بالدعوة الوهابية فعاب على السودانيين تعظيم الأولياء وشرب الخمر وفساد الأخلاق . وفى سنة ١٨٠٢م حدثت ثورة فى مملكة وثنية مجاورة للفلبى كان من أغراضها وقف ازدياد نفوذ الفلبى فى أرجائها . فحز ذلك فى نفس عثمان ونادى بالجهاد فالتف

حوله جماعة من الفرسان . ولما كانت الأرض هنالك منبسطاً جد صالح لمناورة الخيالة ، انقض عثمان وجيشه على الوثنيين والمسلمين على السواء . فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى انصلح حال المسلمين وأسلم الوثنيون . وبذلك ساد الدين الحنيف لأول مرة في وسط أفريقية وفى غربها . وفى سنة ١٨٠٥ أنشئت مدينة سُكوتو واتخذها عثمان عاصمة روحية ومدنية .

وتم له الاستيلاء على جميع أرض الحوصة قبل وفاته سنة ١٨١٦ ومد خلفاؤه من بعده سلطان الفلبى إلى « ادماوه » شرقاً وإلورن فى بلاد يوروبا غرباً ؛ واحتفظوا بهذه السيطرة طوال القرن التاسع عشر .

ولو لم يكن للفلبى فضل إلا نشر الإسلام وتوضيح معتقداته بين الحوصة لكفاهم ذلك فخراً : ذلك بأن الحوصة — كما يصفهم الرحالة والمبشرون — قوم تجار هادئون ينقلون سلعهم مسافات شاسعة ، وتمتد رحلاتهم من ساحل غانة إلى القاهرة . وبلغ من أثرهم أن صارت لغتهم اللغة التجارية لأهل السودان الغربى قاطبة . وبانتشار لغة الحوصة اتسعت دائرة الدعوة إلى الإسلام حتى شكا المبشرون المسيحيون من أن الإسلام يحل حيثما حل الحوصة .

وكان قيام الإدارة البريطانية سنة ١٩٠٠ فى نيجريا فى مصلحة الدعوة إلى الإسلام ، إذ أصبح مسلمو الحوصة يستطيعون الاتصال بالقبائل الوثنية التى كانت إلى ذلك الحين تحرم تسرب المبادىء الاسلامية إلى مواطنها . وإلى جانب ذلك كان المسلمون يلزمون المدن الكبيرة المسورة ، فلما استتب الأمن بوجود البريطانيين سكنوا القرى إلى جوار مزارعهم فاتسع أمامهم ميدان نشر الدين

وساعد تجنيد المسلمين فى نيجريا على نشر دينهم لأن الجنود الوثنيين الجدد يعتنقون الإسلام فراراً من سخرية الناس منهم ، وحرصاً على اكتساب الاحترام الذى يتمتع به الجنود من المسلمين . وبهذه العوامل وأمثالها عم الاسلام نيجريا الجنوبية .

وفى غضون القرن الرابع عشر الميلادى انتقل عرب التنجار من القسم الجنوبى من بلاد تونس وانتشروا فى برنو و« وداى » و بلغوا دارفور . وأعجب ملك دارفور الوثنى برجل منهم يسمى أحمد فاتخذه مستشاراً ووفق أحمد إلى إدخال إصلاحات اجتماعية واقتصادية و إدارية حازت رضاء الملك والسكان جميعاً فتعلق به الأهلون إلى حد حمل الملك على تزويجه من ابنته وتعيينه ولياً لعهده وملكا لدارفور من بعده . فبقى عرب التنجار أصحاب النفوذ فى تلك البلاد إلى اليوم .

ولم يحل دون توغل هؤلاء العرب وأمثالهم إلى ما يلى تلك البلاد جنوباً إلا الغابات الاستوائية الرطبة التى لا تصح فيها أجسامهم ، ولله در عمر بن الخطاب إذ يقول : « لا تصلح العرب إلا حيث تصلح إبلهم » .

ولما أغار بنو هلال على بلاد المغرب فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، هاجر أناس من البربر إلى الصحراء والسودان فوجدوا المسلمين بحاجة إلى الإرشاد . فانبروا لهذه المهمة فلما لم يجدوا إقبالا ، اعتزل أحدهم وهو عبد الله بن يس فى جزيرة فى نهر السنغال وانقطع للعبادة وكثر تلاميذه . فلما بلغوا ألفاً خرج بهم للجهاد سنة ١٠٤٢ م وسماهم المرابطين نسبة إلى الرباط وهو الخلوة التى اتخذها فى جزيرته بنهر السنغال فكان ذلك أصل دولة المرابطين .

وكان انتصار المرابطين كافياً لإقناع قبائل الصحراء بأن الإسلام سبب انتصارهم فأقبلوا يعتنقون هذا الدين الكفيل بالنصر ، فاندفعت القبائل الوثنية إلى راية المرابطين باعتبار كونها تمثل الدين والقومية فى آن واحد .

وكان هؤلاء المتحمسون يختلطون بالسكان حيثما نزلوا ويصهرون إليهم ويقنعون أصهارهم باعتناق الإسلام ، وما يزالون يوسعون ميدان عملهم حتى يكثر أتباعهم فينشئون المساجد والمدارس ، ويعنون بتعليم أبناء الزعماء ويربونهم على الغيرة على الإسلام ، حتى إذا تزعموا قبائلهم استخدموا نفوذهم فى هداية هذه القبائل بأسرها إلى الدين الحق .

وكان من أثر ذلك إنشاء مدينة تمبكتو وهى على نحو ستة كيلومترات ونصف من نهر النيجر وتتصل به بقناة صالحة للملاحة أثناء الفيضان . وبهذا الموقع الموفق تدفقت عليها كل غلات المراعى والمزارع فى السودان الغربى إذ كانت ملتقى الطرق كما رأيت .

ومن ثم وجد التجار المسلمون فيها محطة متوسطة يسهل التنقل منها إلى جميع أنحاء السودان الغربى ونشر الإسلام فيه بحيث صارت تمبكتو العاصمة الدينية والتجارية فى تلك الأصقاع .

وزاد فى انتشار الاسلام خروج المسلمين من أسبانيا : ذلك بأن الذين طردهم الأسبان انطلقوا فى طرق قوافل الصحراء يطلبون أرضاً طيبة . فلما نزلوا السودان جنوا فيه ربحاً مادياً كبيراً ، وجنوا ربحاً أبقى منه هو نشر الاسلام بين زنوج ذلك الاقليم وكانوا إذ ذاك يأكلون لحم البشر ويقربون لأوثانهم القربان من بنى الانسان .

وحيثما حلت هذه الجماعات الأسبانية ومن رافقها من أهل المغرب تجلت حماستهم لنشر الدين بين الشعوب التى أقاموا بين ظهرانيها ، ثم بين من جاورها من الشعوب الوثنية الأخرى .

واستولى هؤلاء الأسبان والمغاربة على تمبكتو وغيرها من بلاد المندنجو . وهاجر هؤلاء فنزلوا إلى الشمال من سيراليون وشرعوا ينشئون المدارس يعلمون فيها اللغة العربية والدين الإسلامى وما يرتبط بهما من الثقافة . وعنوا بنوع خاص بتعليم جيرانهم أن المسلم لا يباع رقيقاً .

وتعترف الشركات البريطانية بأن دخول المندنجو إلى سيراليون رفع أهلها إلى درجة محمودة من الحضارة والاتحاد والأمن ، وأنه كان من نتائج مساعيهم زيادة سريعة فى عدد السكان ، وأن الذين تعلموا فى مدارس المندنجو يزدادون ثروة ونفوذاً فى الجهات المجاورة لهم ، ويَنشرون قدراً عظيماً من تعاليم دينهم وقوانينهم المبنية على القرآن . وتختم إحدى هذه الشركات اعترافها هذا بالشكوى إلى البرلمان البريطانى بقولها : « يظهر أن دين الإسلام سوف يفشو فى كل هذه الأقاليم حتى يعم مستعمرة سيراليون ؛ وينتشر مع الاسلام تلك المزايا التي تنصره على خرافات الزنوج . وقد أمر البرلمان البريطانى بطبع هذه الشكوى سنة ١٨٠٢ .